المنتقى

من كتاب الأخلاق والسير

لابن حزم الأندلسي

انتقاء واختصار وتعليق

فضيلة الشيخ الدكتور

حسن بن الشيخ علي ورسمة

مكتبة القرطاس

المُنتقى

مِن كتابِ الأخلاقِ والسِّيَر

لابن حزم الأندلسي

انتقاءُ واختصارُ وتعليقُ

فضيلة الشيخ الدكتور

حسن ابن الشيخ علي ورسمة

مكتبة القرطاس

عنوان الكتاب : المنتقى من كتاب الاخلاق والسير

لابن حزم الأندلسي

تأليف : د. حسن ابن الشيخ علي ورسمة

عدد الصفحات : ٦٢

الإصدار : الأول

الناشر : مكتبة القرطاس

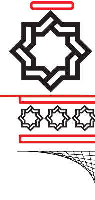
تاريخ النشر : ١٤٤٧ هـ



AL-QIRTAS BOKES



بسم الله الرحمن الرحيم




مقدِّمة المنتقي

الحمد لله الذي جبل النفوس على حبِّ الكمال، وشرع لها من الهدى ما تبلغ به مراتب الجلال، والصلاة والسلام على مَن بُعث ليتمم مكارم الأخلاق، وعلى آله وصحبه الذين ساروا على نهجه في الآفاق.

أما بعد:

فإنَّ النفس الإنسانية بَحْرٌ خِضَمٌّ، تتقاذفها أمواج الهموم، وتتنازعها نوازع الشهوات والطباع، ولا سبيل لنجاتها إلا بمداواتها بعلمٍ يجمع بين نور الوحي وحكمة التجرِبة. ومن بين كنوز تراثنا الإسلامي، يبرز كتاب «**الأخلاق والسير في مداواة النفوس**» للإمام العلامة أبي محمد علي بن حزم الأندلسي -رحمه الله-؛ كواحدٍ من أعمق وأصدق ما كُتب في فقه النفوس

وتقويم الأخلاق.

إنَّ ابن حزم في هذا الأثر لم يكن مجرد فقيهٍ يملي نصوصا، بل كان خبيرا بالنفس، سابرا لأغوارها، معترفا بعيوب نفسه قبل عيوب غيره، فجاءت كلماته «تشريحا» دقيقا لآفات القلوب، و«وصفة» ناجعةً لطرد الهمِّ وتحصيل السعادة الحقيقية التي اتفق البشر على طلبها وضلَّ الكثيرون طريقها.

ولما كان عصرنا هذا قد تسارعت فيه الأحداث، وازدحمت فيه الصوارف، وغلب فيه الشتات على النفوس؛ رأيتُ أنَّ من واجب الوقت تقريب هذا الكنز للأجيال الصاعدة بأسلوبٍ يجمع بين الأصالة والتركيز، فكان هذا «المنتقى» الذي التزمتُ فيه المنهج الآتي:

١- استخلصتُ لُبَّ الكتاب وأكثر معانيه ملامسةً للواقع السلوكي والتربوي، بعيدا عن الاستطرادات المنطقية المعقدة.

٢- اعتمدتُ في هذا الانتقاء على الطبعة التي حققها الدكتور

محمد مطر سالم الكعبي؛ وهي طبعةٌ متميزةٌ قامت على مقابلة واستقصاء خمسِ نُسَخٍ خطيّة.

٣- وضعتُ لكل فقرةٍ عنوانا كاشفا لمضمونها، لتسهل قراءتها ومراجعتها والانتفاع بها.

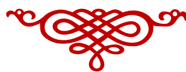
٤- أضفتُ الحواشيَ بتعليقات مُتممة للفائدة.

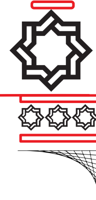
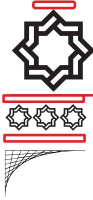
إنَّ هذا العمل ليس مجرد اختصارٍ للكتاب، بل هو محاولة لتقديم «دستور أخلاقي» يقي العقل من سموم النقد، ويحمي القلب من أمراض العُجب، ويرشد النفس إلى أنَّ ثمنها الحقيقي لا يقلُّ عن الجنة.

أضع هذا الجهد المتواضع بين يدي القراء والباحثين وطلاب العلم، راجيا من الله تعالى أن ينفع به، وأن يجعله ذخرا في ميزان القبول، وصلاحا لنفوسنا في زمن الفتن.

وكتبه/ أ.د. حسن ابن الشيخ علي ورسمه – برعو –

٢٢ شعبان ١٤٤٧هـ / ١٠ فبراير ٢٠٢٦م



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

خطبة المؤلف

قالَ أبو محمدٍ عليُّ بنُ أحمدَ بنِ حزمٍ -رضيَ اللهُ عنه:-(١)

مقدمة ابن حزم

الحمدُ للهِ على عظيمِ مَنَنِهِ، وصلى اللهُ على محمدٍ عبدِهِ وخاتمِ أنبيائِهِ ورسلِهِ وسلّمَ تسليمًا. وأبرأُ إليهِ -تعالى- من الحولِ والقوةِ، وأستعينُه على كلِّ ما يعصمُ في الدنيا من جميعِ المخاوفِ والمَكَارِه، ويُخلّصُ في الأخرى من كلِّ هولٍ ومضيقٍ.

---

(١) كانَ ابنُ حزمٍ – رحمه الله- في بدايةِ أمرِهِ شافعيَّ المذهبِ، ثم نَزَعَ بعد ذلك عن التقليد وعن المذاهبِ كافّةً، واختارَ مذهبَ الظاهريةِ؛ وهو القائلُ في مذهبِهِ ذاك:

ألم تعلموا أني ظاهري وأني … على ما بدا حتى يقوم دليل

وله من الكتبِ ما يُعدُّ من كُبرياتِ كتبِ الإسلامِ، وهو كتابُ: (المحلى بالآثار في شرح المجلى بالاختصار) في الفقهِ.

أما بعدُ؛ فإني جمعتُ في كتابي[١] هذا معانيَ كثيرةً أفادنيها واهبُ التمييزِ -تعالى- بمرورِ الأيامِ وتعاقبِ الأحوالِ، بما منحني -عَزَّوَجَلَّ- من التهممِ[٢] بتصاريفِ الزمانِ، والإشرافِ على أحوالِه؛ حتى أنفقتُ في ذلك أكثرَ عُمُري، وآثرتُ تقييدَ ذلك بالمطالعةِ له والفكرةِ فيه على جميعِ اللذاتِ التي تميلُ إليها أكثرُ النفوسِ، وعلى الازديادِ من فضولِ المالِ.

وزممتُ[٣] كلَّ ما سبرتُ[٤] من ذلك بهذا الكتابِ؛ لينفعَ اللهُ -

---

(١) خلاصة هذا الكتابِ حولَ ثلاثِ قضايا رئيسةٍ:

القضيةُ الأولى: تنبيهات وإرشادات إلى الحقيقةِ التي خُلقنا من أجلِها.

القضيةُ الثانيةُ: تنبيهُ المؤلفِ -رحمه الله تعالى- إلى ضرورةِ الاقتداءِ بالنبيِّ محمدٍ ﷺ والتمسكِ بسنتِهِ قولا وفعلا.

القضيةُ الثالثةُ -والتي تُمثلُ الجزءَ الأكبرَ من الكتابِ كما يُعبرُ عنها عنوان الكتاب - فهي: (التربيةُ بالعلمِ والإيمانِ).

(٢) التهمم: الاهتمام والعناية.

(٣) زممت: جمعت.

(٤) سبرتُ: بحثت واختبرتُ.

تعالى- به من يشاءُ من عبادِه ممن يصلُ إليهِ.

وأنا راجٍ في ذلك من اللهِ -تعالى- أعظمَ الأجرِ؛ لنيتي في نفعِ عبادِه، وإصلاحِ ما فسدَ من أخلاقِهم، ومداواةِ عللِ نفوسِهم؛ وباللهِ أستعينُ.

مطلب اتفق عليه البشر

تطلَّبتُ غرضاً يستوي الناسُ كلهم في استحسانه وفي طلبه، فلم أجد إلا واحداً، وهو: طرد الهم؛ فلما تدبرته علمتُ أن الناس كلهم لم يستووا في استحسانه فقط، ولا في طلبه فقط، ولكن رأيتهم -على اختلاف أهوائهم ومطالبهم، وتباين هممهم وإراداتهم- لا يتحركون حركةً أصلاً إلا فيما يرجون به طردَ الهم، ولا ينطقون بكلمةٍ أصلاً إلا فيما يعانون به إزاحته عن أنفسهم؛ فمن مخطيءٍ وجهَ سبيله، ومن مقاربٍ للخطأ، ومن مصيبٍ؛ وهو الأقل من الناس في الأقل من أموره.

العمل للآخرة: الدواء الوحيد للهمّ

فلما استقر في نفسي هذا العلم الرفيع، وانكشف لي هذا السر العجيب، وأنار الله تعالى لفكري هذا الكنز العظيم؛ بحثت عن سبيلٍ موصلةٍ -على الحقيقة- إلى طرد الهمّ - الذي هو المطلوب النفيس[١] - الذي اتفق جميع نوع الإنسان الجاهلِ منهم والعالم، والصالح والطالح، على السعي له؛ فلم أجدها إلا التوجه إلى الله -عَزَّوَجَلَّ- والعمل للآخرة.

وإنما طلب المالَ طلّابُه ليطردوا به همَّ الفقر عن أنفسهم، وإنما طلب الصيتَ مَن طلبه ليطرد به عن نفسه همَّ الاستعلاء عليها؛ وإنما أكل مَن أكل، وشرب مَن شرب، ونكح مَن نكح، ولبس مَن لبس، ولعب مَن لعب، وركب مَن ركب، ومشى مَن مشى؛ ليطردوا عن أنفسهم أضداد هذه الأفعال وسائر الهموم.

(١) وفي بعض النسخ (للنفس).

وفي كل ما ذكرنا لمن تدبره هموٌمٌ حادثة؛ من تَعَذُّرِ ما يَتَعَذَّرُ، وذهاب ما وُجد منها، والعجز عنه ببعض الآفات الكائنة، وبعد الحصول عليها أيضاً هموٌمٌ؛ من خوف منافس، وطعن حاسد، أو اختلاس راغب. ووجدتُ العمل للآخرة سالماً من كل عيب، خالصاً من كل كدر، موصلاً إلى طرد الهمّ على الحقيقة.

كن عالي الهمّة

لا تبذل نفسك إلا فيما هو أعلى منها، وليس ذلك إلا في ذات الله -عَزَّوَجَلَّ-؛ في دعاءٍ إلى حق، وفي حماية الحريم[1]، وفي نصر المظلوم. وباذلُ نفسه في عرضِ دنيا؛ كبائع الياقوت بالحصى.

(١) «الحريم» يُطلقُ على النساء (الزوجات، البنات، الأخوات، والأمهات ونحوهن) والمقصودُ بها ما يَحرمُ انتهاكُه ويجبُ الذودُ عنه. ويشهدُ لهذا المعنى حديثَ سعيدِ بنِ زيدٍ -رضي الله عنه- الذي أخرجه الضياءُ المقدسيُّ في (الأحاديثِ المختارةِ) برقم (١٠٩٢): «ومَن قُتِلَ دُونَ أهْلِه فهو شَهيدٌ».

ثمن النفس عند العقلاء

العاقل لا يرى لنفسه ثمنا إلا الجنة[١].

باب عظيم من أبواب العقل والراحة

بابٌ عظيمٌ من أبواب العقل والراحة، وهو: اطراح المبالاة بكلام الناس، واستعمال المبالاة بكلام الخالق -عَزَّوَجَلَّ-؛ بل هذا باب العقل كله، والراحة كلها.

وقاية العقل من سموم النقد

من قدَّرَ أنه يسلم من طعن الناس وعيبهم فهو مجنون.

حقيقة الناس ومدحهم

مَنْ حقّق النظر، وراضَ نفسه على السكون إلى الحقائق، كان

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ سورة التوبة [الآية:١١١].

اغتباطه بذم الناس إياه أكثر من اغتباطه بمدحهم إياه؛ لأن مدحهم إياه: إن كان بحقٍ وبلغه مدحهم له، أسرى ذلك فيه العُجب، فأفسد بذلك فضائله؛ وإن كان بباطلٍ فبلغه فسرَّه، فقد صار مسروراً بالكذب، وهذا نقصٌ شديد.

وأما ذمُّ الناس إياه: فإن كان بحقٍ فبلغه، فربما كان ذلك سبباً إلى تَجنُبِه ما يُعاب عليه، وهذا حظٌ عظيم لا يَزهَد فيه إلا ناقص؛ وإن كان بباطلٍ وبلغه فصبر، اكتسب فضلاً زائداً بالحلم والصبر، وكان مع ذلك غانماً؛ لأنه يأخذ حسنات مَنْ ذمَّه بالباطل، فيَحظى بها في دار الجزاء بدون تعبٍ منه، وهذا حظٌ عظيم لا يزهد فيه إلا مجنون.

اعتياد الفضائل

ليس بين الفضائل والرذائل، ولا بين الطاعات والمعاصي؛ إلا نِفار النفس وأُنسُها فقط. فالسعيدُ مَن أَنَسَتْ نفسه بالفضائل

والطاعات، ونَفَرت عن الرذائل والمعاصي؛ والشقيُّ مَن أَنَسَتْ نفسه بالرذائل والمعاصي، ونفِرت عن الفضائل والطاعات. وليس ها هنا إلا صُنْعُ الله تعالى وحفظه.(١)

(١) منهج تغيير العادات يكون كالتالي:

أولا: الوعيُ والإدراكُ؛ بأن يُدركَ المرءُ أنَّ العادةَ التي يمارسُها سيئةٌ، ويحيطَ علم بضررِها.

ثانيا: العزيمةُ والإرادةُ واتخاذ قرار التغيير؛ امتثالا لقول ربنا -تعالى-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ سورة الرعد [الآية: ١١].

ثالثا: الإحلال الإجرائي: استبدال السلوك القديم بنقيضه، وفي ذلك قال الشاعر:

نَصَحتُكَ لا تَأْلَفْ سِوى العادَةِ الَّتي يَسُرُّكَ مِنها مَنشَأٌ ومَصيرُ.

فلم أرَ كالعادات شيئاً بناؤهُ يسير وأما هدمهُ فعسير.

قال المتنبي:

إِذا اعتادَ الفَتى خَوضَ المَنايا فَأَهوَنُ ما يَمُرُّ بِهِ الوُحولُ.

رابعا: الثباتُ والاستمرارُ؛ ويُقدرُ علماءُ التربيةِ أنَّ الإنسانَ يحتاجُ إلى ثلاثةِ أسابيعَ (٢١ يوما) تقريبا حتى يتمكنَ من تغييرِ عاداتِه.

الفرق بين طالب الخير وطالب الشر

طالبُ الآخرة ليفوز في الآخرة متشبِّهٌ بالملائكة،[١] وطالبُ الشرِّ متشبهٌ بالشياطين، وطالبُ الصوت -الصِيتِ- والغلبة متشبهٌ بالسباع، وطالبُ اللذات متشبهٌ بالبهائم.

فالعاقل لا يغتبط بصفة يفوقه فيها سَبُعٌ، أو بهيمةٌ، أو جمادٌ؛ وإنما يغتبط بتقدمه في الفضيلة التي أبانه الله تعالى بها عن السباع والبهائم والجمادات؛ وهي التمييز الذي يشارك فيه الملائكة.

حقيقة الوقت

إذا حققتَ مدة الدنيا لم تجدها إلا الآن، الذي هو فصل زمانين فقط[٢]؛ وأما ما مضى وما لم يأتِ فمعدومان كما لم يكونا.

(١) نقلَ المُطهَّرُ بنُ طاهرٍ المقدسيُّ في كتابِهِ (البدء والتاريخ) كلاما عزاهُ إلى كعبٍ أنَّهُ قالَ: «ركَّبَ اللهُ في الملائكةِ العقلَ بلا شهوةٍ، وفي البهائمِ الشهوة بلا عقلٍ، وفي ابنِ آدمَ كِلَيْهِما؛ فمَنْ غَلَبَ عقلُهُ شهوتَهُ فهو خيرٌ من الملائكةِ، ومَنْ غَلَبَتْ شهوتُهُ عقلَهُ فهو شرٌّ من البهائمِ».

(٢) قيل:

ما مضى فات والمؤمَّل غيبٌ ... ولك الساعة التي أنت فيها

فمن أضلُّ ممن يبيع باقياً خالداً بمدةٍ هي أقلُّ من كرِّ الطَّرف؟!.

فضل العلم وجلالة أهله

لو لم يكن من فضل العلم إلا أنَّ الجهال يهابونَك ويجلونك، وأنَّ العلماء يحبونك ويكرمونك(١)؛ لكان ذلك سبباً إلى وجوب طلبه، فكيف بسائر فضائله في الدنيا والآخرة.

عز العلم وذل الجهل

لو لم يكن من نقص الجهل إلا أنَّ صاحبه يحسد العلماء

(١) قال ابن الخياط يمدح مالك بن أنس -رحمه الله تعالى:

يدعُ الجواب فلا يراجع هيبةً   والسائلون نواكس الأذقانِ
نور الوقار وعز سلطان التقى   فهو المهيب وليس ذا سلطان.

هابَ بعضَ العلماءِ مَنْ ليسوا علماءَ؛ ومِنَ القصصِ المشهورةِ في ذلكَ قصةُ الإمامِ أبي حنيفةَ -رحمه الله تعالى- مع ذلك الرجلِ الذي لَمَّا رآهُ أبو حنيفةَ هابَهُ وضَمَّ رِجْلَيْهِ، حتى سألَهُ الرجلُ: متى يُفطِرُ الصائمُ؟ فقال: إذا غَرَبتِ الشمسُ، فقالَ الرجلُ: فإذا لَمْ تَغْرُبِ الشمسُ؟ فقالَ أبو حنيفةَ: آنَ لأبي حنيفةَ أنْ يَمُدَّ رِجلَيْهِ.

ويَغبِط نظراءه من الجهال[1]؛ لكان ذلك سبباً إلى وجوب الفرار عنه، فكيف بسائر رذائله؟!.

الاشتغال بالعلم: حصن العقل من الوساوس والهموم

لو لم يكن من فائدة العلم والاشتغال به إلا أنه يقطع المشتغل به عن الوساوس المضْنِيَةِ، ومطارح الآمال التي لا تفيد غير الهم، وكفاية الأفكار المؤلمة للنفس؛ لكان ذلك أعظم داعٍ إليه، فكيف وله من الفضائل ما يطول ذكره؟!.

العلم النافع

منفعةُ العلم في استعمال الفضائل عظيمة؛ وهو أنه يُعلِّم حُسن الفضائل فيأتيها ولو في الندرة، ويُعلِّم قبحَ الرذائل فيجتنبها ولو في

---

(١) أخرج أبو أحمد العسكري في «المصون» (ص١٤٨) بإسناده قال: قال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه: «كفى بالعلم شرفا أنه يدعيه من لا يحسنه، ويفرح به إذا نسب إليه. وكفى بالجهل خمولا أنه يتبرأ منه من هو فيه، ويغضب منه إذا نسب إليه».

الندرة، ويسمع الثناء[1] الحسن فيرغب في مثله، والثناء الرديء فينفر منه.

نصائح لطلبة العلم

أجلُّ العلوم ما قرَّبك من خالقك تعالى، وما أعانك على الوصول إلى رضاه.[2]

انظر في المال والحال والصحة إلى مَن دونك، وانظر في الدين والعلم والفضائل إلى مَن فوقك.[3]

(١) الثناء: في اللغة يستخدم في الخير والشر؛ وقد ورد في الحديث: «مَرُّوا بجَنازَةٍ، فأثْنَوْا عَلَيْها خَيْرًا.. فأثْنَوْا عَلَيْها شَرًّا».

ولكن العرف جرى على استعماله في المدح والذكر الحسن، كما في الحديث: «حَمِدَ اللهَ وأَثْنى عليه».

(٢) سُئل الإمام مالك: ما الذي نتعلمه؟ فقال: «انظر ما ينفعك في ليلك ونهارك فاشتغل به».

(٣) ثبت في صحيح مسلم برقم:(٢٩٦٣) من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – أن النبي ﷺ قال: **«انْظُرُوا إلى مَن أسْفَلَ مِنكُمْ، ولا تَنْظُرُوا إلى مَن هو فَوْقَكُمْ، فَهو أجْدَرُ أنْ لا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ»**.

لا تُضرَّ بنفسك في أن تُجرِّب بها الآراء الفاسدة لتُرِيَ المشير بها فسادها فتهلك؛ فإن ملامة ذي الرأي الفاسد لك على مخالفته وأنت ناجٍ من المكاره، خيرٌ لك من أن يَعذِرك ويَندم كلاكما وأنت قد حصلت في المكاره.

وإياك وأن تسرَّ غيرك بما تسوء به نفسك فيما لم توجبه عليك شريعةٌ أو فضيلة.

آفة الدخلاء على العلوم

لا آفةَ على العلوم وأهلها أضرُّ من الدخلاء فيها، وهم من غير أهلها؛ فإنهم يجهلون ويظنون أنهم يعلمون، ويُفسدون ويُقدِّرون أنهم يُصلِحون. [١].

(١) كمن قال: (الحية السوداء داء لكل داء)، بدلاً من (الحبة السوداء)؛ وهو من الأخطاء الفاحشة في القراءة.

الاقتداء بالنبي ﷺ أصل الفلاح

مَن أراد خيرَ الآخرة، وحكمةَ الدنيا، وعدلَ السيرة، والاحتواءَ على محاسن الأخلاق كلها، واستحقاقَ الفضائل بأسرها؛ فليقتدِ بمحمدٍ رسولِ الله -ﷺ-، وليستعمل أخلاقَه وسِيَرَه ما أمكنه.[١]

مواهب ربانية

قد رأيتُ من غمارِ العامة[٢] مَن يجري من الاعتدال وحَمِيدِ الأخلاق إلى ما لا يتقدمه فيه حكيمٌ عالمٌ رائضٌ لنفسه؛ ولكنه قليلٌ جداً.[٣]

---

(١) هذه القاعدة مأخوذة من قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ سورة الأحزاب (الآية:٢١).

(٢) «غمار العامة» : أي جمعَهم المزدحم.

(٣) قال النبي ﷺ:كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة-رضي الله عنه- «**النّاسُ مَعادِنُ كَمَعادِنِ الفِضّةِ والذَّهَبِ، خِيارُهُمْ في الجاهِلِيَّةِ خِيارُهُمْ في الإسْلامِ إذا فَقُهُوا**..... »

من دروس الحياة

احرص على أن تُوصَف بسلامة الجانب، وتَحَفَّظْ من أن تُوصَف بالدهاء[١]؛ فيكثر المتحفِظون منك، حتى ربما أضرَّ ذلك بك، وربما قتلك.

توطين النفس على المكروه

وطِّنْ نفسك على ما تكره؛ يقِلّ همّك إذا أتاك، ويعظم سرورك ويتضاعف إذا أتاك ما تحب مما لم تكن قدَّرْتَه[٢].

(١) الدهاء: أي المكر والاحتيال.

(٢) يُلَخصُ المؤلفُ- رحمه الله تعالى- هنا نصيحةَ عمرَ بنِ الخطابِ -رضي الله عنه- التي قال فيها: «اخشوشنوا فإن النعم لا تدوم»أي اتركوا الترف المستمر فإن دوام الحال من المحال.

حقيقة الأذى بين الإقبال والتدبير

لا تفكرْ فيمن يؤذيك؛ فإنك إن كنتَ مقبلاً فهو هالكٌ[١] وسَعْدُك[٢] يكفيك، وإن كنتَ مدبراً فكلُّ أحدٍ يؤذيك[٣].

فقه العيوب

طوبى لِمَن عَلِمَ من عيوبِ نفسه أكثرَ مما يعلمُ الناسُ منها.

المبادرة بالعمل

لا تحقر شيئا من عمل غدٍ أن تحقِّقَه بأن تعجّله اليوم وإن قلّ فإن من قليل الأعمال يجتمع كثيرها وربما أعجز أمرها عند ذلك

(١) يشير المؤلف – رحمه الله تعالى– هنا إلى الحديث القدسي الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه، كما في صحيح البخاري برقم (٦٥٠٢): أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ اللهَّ قالَ: مَن عادى لي وَلِيًّا فقَدْ آذَنْتُهُ بالحَرْبِ.... »

(٢) سعدك: حظك.

(٣) أي: إذا كان الله معك فلن يضرك أحد؛ وكما قيل: مَنْ وجد الله فما فقد ومَنْ فقد الله فما وجد.

فيبطل الكل.

نهاية الغدر والزور والزنى

أولُ مَن يزهدُ في الغادرِ مَن غدرَ له الغادرُ، وأولُ مَن يمقتُ شاهدَ الزورِ مَن شهدَ له به، وأولُ مَن تهونُ الزانيةُ في عينه الذي يزني بها.[١]

التثبت من القول

لا تُجبْ عن كلامٍ نُقِلَ إليك عن قائلٍ حتى توقنَ أنه قاله؛ فإنَّ مَن نقلَ إليك كذباً، رجعَ من عندك بحقٍّ.[٢]

---

(١) وهذا معنى الحديث الذي أخرجه الترمذي برقم: (٢٤١٤)، وعبد بن حميد في «المسند» برقم(١٥٢٢)، وابن حبان برقم (٢٧٧) باختلاف يسير، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» برقم (٢٢٥٠)، «**ومَنِ التَمَسَ رِضا الناسِ بسَخَطِ الله، سَخِطَ اللهُ عليه وأسخَطَ عليه الناسَ**» ..

(٢) قال الإمام الشافعي – رحمه الله تعالى -: «من نَمَّ لك نَمَّ بك، ومن نقل إليك نقل عنك» انظر: مناقب الشافعي: للإمام البيهقي، (٢/ ١٩٨) المطلوب منك هو أن تحرص على
=

ميزان الثقة

ثِقْ بالمتدَيِّنِ وإن كان على غير دينك، ولا تثق بالمستخفِّ وإن أظهر أنه على دينك.(١)

= سلامة قلب أخيك تجاهك؛ فقد قال النبي ﷺ «لَا يُبَلِّغُنِي أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِي عَنْ أَحَدٍ شَيْئًا؛ فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَخْرُجَ إِلَيْكُمْ وَأَنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ». تخريج سنن أبي داود لشعيب الأرنؤوط برقم: (٤٨٦٠) قال: إسناده ضعيف، والترمذي برقم:(٣٨٩٦)، وأحمد برقم: (٣٧٥٩) مطولا. عن عبدالله بن مسعود –رضي الله عنه.

(١) القضية ليست مجرد ادّعاء للإسلام فحسب، بل هي العمل بمقتضاه، وأن يظهر أثره في سلوك الفرد وتصرفاته. فقد توجد أفعال يترفع عنها الكفار بينما يرتكبها من ينتسب إلى الإسلام اسما؛ فكثير من الكفار يحافظون على شرفهم وضمائرهم ويتجنبون الرذائل. وحتى في الجاهلية، كان الناس يترفعون عن أمور كثيرة؛ فمنهم من حرم الخمر على نفسه وقال:

شربتُ الإثمَ حتى ضلَّ عقلي كذاك الإثمُ يذهبُ بالعقولِ.

وعندما جاءت هند بنت عتبة لتبايع رسول الله ﷺ فلمّا قال رسولُ اللهِ ﷺ: ولا يزنينَ، قالَتْ: أَوَ تزني الحُرَّةُ؟!». وحينما كان أبو سفيان عند هرقل: قال: «فَواللهِ لَوْلا الحَياءُ مِن أنْ يَأْثِرُوا عَلَيَّ كَذِبًا لَكَذَبْتُ عنْه».

مَن استخفَّ بحرمات الله تعالى فلا تأمنْه على شيءٍ مما تشفق عليه.

من حيل إبليس

لم أرَ لإبليسَ أصيدَ ولا أقبحَ ولا أحمقَ من كلمتين ألقاهما على ألسنة دعاته:

أحدهما اعتذارُ مَن أساء بأنَّ فلاناً أساء قبله(١).

والثانية: استسهالُ الإنسان أن يسيءَ اليوم لأنه قد أساء أمسِ، أو أن يسيءَ في وجهٍ ما لأنه قد أساء في غيره.

(١) والله حذرنا من هذا بقوله ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ الأنعام برقم: [١١٦]. وقال الفضيل: عليك بطريق الحق ولا تستوحش لقلة السالكين، وإياك وطريق الباطل ولا تغتر بكثرة الهالكين. وعن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله – ﷺ" :– «**لا تَكُونُوا إِمَّعَةً، تَقولُونَ: إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا، وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا، وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ، إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تحْسِنُوا، وَإِنْ أَسَاءُوا فَلا تَظْلِمُوا**» . رواه الترمذي، وقال: حديثٌ حسنٌ غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير.

حسن الظن وسوء الظن

استعملْ سوءَ الظنِّ حيث تقدرُ على توفيَتِه حقَّه في التحفّظ والتأهّب، واستعملْ حسنَ الظنِّ حيث لا طاقةَ بك على التحفظ؛ فتربحَ راحةَ النفس(١).

(١) لقد حثنا الشرع على ما يُعرف بـ (حسن الظن)؛ فقد روى جابر رضي الله عنه قال: «سَمِعْتُ النبيَّ ﷺ، قَبْلَ وَفاتِهِ بثَلاثٍ يقولُ: **لا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إلّا وَهو يُحْسِنُ باللهِ الظَّنَّ**». وفي الحديث القدسي: «**أنا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي**». وكذلك يُندب حسن الظن بالخَلق وتوقع الخير منهم، وقد حُذرنا من سوء الظن في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ سورة الحجرات [الآية:١٢] ولم يقل (إن كل الظن إثم). ومن هنا يُستفاد أن (سوء الظن) قد يكون مطلوبا في بعض الأحيان كنوع من الاحتياط، وهو ما يُعرف بـ (الحزم). القاعدة هي: حيثما وجدتَ مجالا للحذر فاستخدم (سوء الظن) من باب الاحتياط، ولا يعني هذا اتهام الشخص في ذاته بأنه خائن أو سارق، بل المقصود هو العمل بمقتضى الحذر لحماية النفس. أما في الحالات التي لا تملك فيها وسيلة للاحتياط وتكون مضطراً للتعامل، فاستعمل (حسن الظن) وتوكل على الله متأملا الخير، عاملا بالحكمة القائلة: «تفاءلوا بالخير تجدوه» (وهي حكمة وليست حديثا نبويا).

=

حدود الفضائل

حدُّ الشجاعةِ بذلُ النفسِ للموتِ عن الدينِ والحريمِ وفي سائرِ سبلِ الحقِّ؛ سواءٌ قلَّ مَن يعارِضُ أو كثُرَ.

حد العفة

حدُّ العفةِ أن تغضَّ بصرَكَ وجميعَ جوارحِكَ عن الأجسامِ التي لا تحلُّ لك.

= وهذا هو الفرق الدقيق بين (حسن الظن) و(سوء الظن)؛ وقد ورد في بعض الآثار: «الحَـزمُ سُـوءُ الظَّنِّ» لكنه لم يثبت عن النبي ﷺ. والأصل هو تحسين الظن بالناس، لكن دون إفراط يؤدي إلى (الغفلة)، فبعض الناس يُخدعون دائماً باسم حسن الظن. ومن هنا كان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يقول: «لستُ بالخِبِّ، ولا الخِبُّ يخدعني» (أي لستُ مخادعا ولا يسهل خداعي)، وقد ثبت في الصحيحين: «**لا يُلدغُ المؤمنُ من جُحرٍ واحدٍ مرتين**».

ولخص (أبو توبة الربيع بن نافع) هذه الحكمة بقوله: «إياك من الكلام ما إن أصبتَ فيه لم تُؤجر، وإن أخطأتَ فيه أثمتَ؛ وهو سوء الظن بأخيك» (تهذيب التهذيب ١/ ٤٢٥)".

حد العدل والجور

حدُّ العدلِ أن تُعطيَ من نفسِك الواجبَ وتأخذَه، وحدُّ الجورِ أن تأخذَه ولا تُعطيَه.

حد الكرم

حدُّ الكرمِ أن تُعطيَ من نفسِك الحقَّ طائعاً، وتتجافى عن حقِّك لغيرِك قادرا.

غير نفسك

كانت فيَّ عيوبٌ، فلم أزل بالرياضةِ واطلاعي على ما قالت الأنبياء -صلوات الله عليهم- والحكماء في الأخلاق، حتى أعان الله عَزَّوَجَلَّ على أكثر ذلك بتوفيقه ومَنِّه؛ فمنها: كلفٌ(١) في الرضاء، وإفراطٌ في الغضب.

(١) كلف: هو شدة التعلق بالشيء مع المشقة والعناء (أي أنه كان يتعب نفسه في طلب رضا الناس.

ومنها: دُعابة[١] غالبة فالذي قدرت عليه فيها إمساكي عما يغضب الممازح.

ومنها: عُجْب شديد فناظر عقلي نفسي بما يعرفه من عيوبها حتى ذهب كله.

ومنها: حركات كانت تولدها غرارة الصبا[٢] وضعف الأعضاء فقصرت نفسي على تركها فذهبت ولله الحمد.

وَمِنها: محبةٌ في بُعد الصيتِ والغلبة؛ فالذي وقفتُ عليه من معاناة هذا الداء الإمساكُ فيه عما لا يحل في الديانة، والله المستعان على الباقي.

وأما الزهوُ[٣] والحسدُ والكذبُ والخيانةُ؛ فلم أعرفها بطبعي قطُّ، وكأني لا حَمْدَ لي في تركها لمنافرةِ جبلتي إياها، والحمد لله

(١) دعابة: اللَّعب والممازَحة.

(٢) غرارة الصباء: غفلة الصبا.

(٣) المفاخرة والتكبر.

رب العالمين.

بين المدح والذم

أبلغ في ذمِّك مَن مدحَك بما ليس فيك؛ لأنه نبَّه على نقصِك. وأبلغ في مدحِك مَن ذمَّك بما ليس فيك؛ لأنه نبَّه على فضلِك، ولقد انتصرَ لك من نفسِه بذلك، وباسْتِهْدافه إلى الإنكارِ واللائمة[١].

(١) إذا مُدح الشخص بما هو فيه، فقد قال النبي ﷺ: «**إذا رَأَيْتُمُ المَدّاحِينَ، فاحْثُوا في وُجُوهِهِمِ التُّرابَ**» والحديث في صحيح مسلم برقم:(٣٠٠٢). أما إذا مُدح بما ليس فيه كذبا وزورا، فمن باب أولى وأحرى الحذر من ذلك؛ وقد قال الإمام علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – «مَن مدحك بما ليس فيك من الجميل وهو راضٍ عنك، ذمَّك بما ليس فيك من القبيح وهو ساخطٌ عليك.»

طريق الكمال

لو عَلِمَ الناقصُ نقصَه؛ لكان كاملاً[١].

ميزان السعادة

لا يخلو مخلوقٌ من عيبٍ؛ فالسعيدُ مَن قلَّتْ عيوبُه ودقَّتْ[٢].

(١) كل إنسان أدرى بنفسه، والواجب عليه أن يسعى جاهدا لعلاج عيوبه والتخلص منها. إنَّ أعظم هدية يقدمها لك عدوك هي أن يكشف لك عيوبك التي كنت تجهلها؛ وفي هذه الحالة، لا ينبغي لك (المكابرة). فبعض الناس يفرطون في (الثقة بالنفس)؛ ورغم الاهتمام الكبير بموضوعات الثقة بالنفس إلا أن النفس تحتاج للثقة لتنطلق، لكن هذا لا يعني أبداً الدفاع عن العيوب أو تبريرها.

لقد كان السلف يراقبون نفوسهم بدقة متناهية حتى في العبادة؛ قال سليمان الداراني -رحمه الله-: «ربما أحدثُ بحديثٍ ولي نية، فإذا أتيتُ على بعضه تغيرت نيتي، فإذا الحديث الواحد يحتاج إلى نيات!».

وقال المتنبي:

وَلَمْ أَرَ في عُيوبِ الناسِ شَيئاً   كَنَقصِ القادِرينَ عَلى التَمامِ

(٢) قال الشاعر:

وَمَن ذا الَّذي تُرضى سَجاياهُ كُلُّها   كَفى المرءَ نُبلاً أَن تُعَدَّ مَعايِبُهُ

=

قيمة العتاب

استبقاكَ مَن عتبَ عليكَ، وزهدَ فيكَ مَن استهانَ بسيئاتِكَ.

أثر العتاب في كشف المعادن

العتابُ للصديقِ كالسَّبْكِ للسَّبِيكَةِ؛ فإما تصفو وإما تطيرُ.

= وقال الحريري في خاتمة ملحته:

وَإِن تَجِد عَيباً فَسُدَّ الخَلَلا ... فَجَلَّ مَن لا عَيْبَ فيهِ وَعَلا

بذل المعروف

ابذلْ فضلَ مالِكَ وجاهِكَ لمَن سألكَ أو لم يسألكَ، ولكلِّ مَن احتاجَ إليكَ وأمكنكَ نفعُه[١] وإن لم يعتمدكَ.[٢] .

فصل: من أصول النصيحة

لا تنصحْ على شرطِ القبولِ، ولا تشفعْ على شرطِ الإجابةِ، ولا تَهِبْ على شرطِ الإثابةِ؛ لكن على سبيلِ استعمالِ الفضلِ، وتأديةِ ما عليكَ من النصيحةِ والشفاعةِ وبذلِ المعروفِ.

(١) ثبت في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - قال: «كان النبي ﷺ أَنَّهُ كانَ إذا أتاهُ السّائِلُ أوْ صاحِبُ الحاجَةِ قالَ: **اشْفَعُوا فَلْتُؤْجَرُوا، ولْيَقْضِ اللَّهُ على لِسانِ رَسولِهِ ما شاءَ**» . أخرجه البخاري برقم (٦٠٢٨)، ومسلم برقم (٢٦٢٧).

قيل: مِن أعظمِ المِنَنِ والجُود، بذل النوالِ قبلَ السؤال. والمقصود بذلك هو الشخص المتعفف؛ الذي لم يعتد (الشحاذة) أو سؤال الناس، بل يمنعه حياؤه وعزة نفسه من الطلب.

سُئل لأحد الحكماء: مَن أجودُ الناس؟ قال: أجودُ الناسِ مَن جادَ مِن قِلّة، وصانَ وجهَ السائلِ عنِ المذلّة.

(٢) يعتمدك: يقصدك.

الاستكثار من الإخوان

ليس شيءٌ من الفضائلِ أشبهَ بالرذائلِ من الاستكثارِ من الإخوانِ[١] والأصدقاءِ؛ فإن ذلك فضيلةٌ تامةٌ متركبةٌ؛ لأنهم لا يُكتسبون إلا بالحلمِ[٢]، والجودِ، والصبرِ، والوفاءِ، والاستضلاعِ، والمشاركةِ، والعفةِ، وحسنِ الدفاعِ، وتعليمِ العلمِ، وبكلِّ حالةٍ محمودةٍ[٣].

---

(١) يقصد الأخوة في الإسلام.

(٢) أصولُ الأخلاقِ الفاضلةِ هي: بذلُ النَّدى، وكفُّ الأذى، واحتمالُ الأذى، وطلاقةُ الوجه.

(٣) إنَّ الفضائل الكبرى كـ (بذل الندى وكفِّ الأذى .....)لا تستقيمُ إلا بمخالطة الأخيار ومصاحبة الأبرار، شريطةَ أن يكون الصلاحُ ديْدنهم. ومع ذلك، فإنَّ الأزمان في تراجع، والقيم في انحسار، تصديقا لقوله ﷺ:« **لا يأتي عليكم زمانٌ إلا الذي بعده شرٌ منه** ». ومن هنا، كان التحذير من الاغترار بكثرةِ المعارف؛ فكما قال الإمام علي بن أبي طالب – رضي الله عنه:–

فَما أَكثَرَ الإِخوانَ حينَ تَعدُّهُم وَلَكِنَّهُم في النائِباتِ قَليلُ

وعليه، فإنَّ الاستكثار من الأصحاب ليس ممدوحا على إطلاقه. و نظر الإمام ابن حزم – رحمه الله تعالى – ها هنا إلى الصداقة من زاوية (التعاون على البر وتبادل العلم)، فإنَّ =

آفة مجالسة الناس

لو لم يكن في مجالسةِ الناسِ إلا عيبانِ لكفيا:

أحدُهما: الاسترسالُ عند الأنسِ بالأسرارِ المهْلِكةِ القاتلةِ، التي لولا المجالسةُ لم يبحْ بها البائحُ.

والثاني: مواقعةُ الغيبةِ المهْلِكةِ في الآخرةِ؛ فلا سبيلَ إلى السلامةِ من هاتين البليَّتينِ إلا بالانفرادِ عن المجالسةِ جملةً.

أصدقاء الدولة

لا يغترَّ العاقلُ بصداقةٍ حادثةٍ له أيامَ دولتِه؛ فكلُّ أحدٍ صديقُه

= للخلطةِ المفرطةِ ضريبةً باهظة؛ فقد قيل: (الاستئناسُ بالناسِ من علاماتِ الإفلاس)، وزاد الحكماءُ بيانا آخر فقالوا: (يأنسُ بالعزلةِ العارفُ، ويستوحشُ منها الجاهلُ).

إنَّ الخطورةَ تكمنُ في أنَّ كثرة الأصدقاء مظنَّةُ كثرة الأعداء، فمنهم تخرجُ الأسرارُ ومنهم تُعرفُ المداخل، وكما قال الشاعر الحكيم:

عَدُوُّكَ مِن صَديقِكَ مُستَفادٌ ... فَلا تَستَكثِرَنَّ مِنَ الصِحابِ

فَإِنَّ الداءَ أَكثَرَ ما تَراهُ ... يكون مِنَ الطَعامِ أَوِ الشَرابِ

وقال إبراهيم بن العباس الصولي: مثل الإخوان كالنار؛ قليلها متاع، وكثيرها بوار.

يومئذٍ[١].

معيار الاستعانة

اجهدْ[٢] في أن تستعينَ في أمورِك بمن يريدُ منها لنفسِه مثلَ ما تريدُ لنفسِك، ولا تستعنْ فيها بمن حظُّه من غيرِك كحظِّه منكَ.

قرب المكروه كبعد المحبوب

مَن امتُحِنَ بقُربِ مَن يكرَهُ، كَمَن امتُحِنَ ببُعدِ مَن يحبُّ، ولا فَرق.

قناعة المتبوع بقناعة التابع

اقنَعْ بمَن عندَكَ؛ يقنَعْ بكَ مَن عندَكَ.

(١) يصدقه قول الإمام علي بن أبي طالب –رضي الله عنه: السابق.

(٢) اجهدْ: هكذا هو مكتوب في النسخ التي وقفتُ عليها، وتعني: ابذل جهدك، واحرص، واجتهد، واعمل بجد ونشاط.

آداب النصيحة:

النصيحةُ مرتانِ:

فالأولى فرضٌ وديانةٌ.

والثانيةُ تنبيهٌ وتذكيرٌ.

وأما الثالثةُ فتوبيخٌ وتقريعٌ، وليس وراءَ ذلك إلا الرَّكلُ واللطامُ؛ اللهمَّ إلا في معاني الديانةِ؛ فواجبٌ على المرءِ تَردادُ النصحِ فيها، رضيَ المنصوحُ أو سخطَ، تأذَّى الناصحُ بذلكَ أو لم يتأذَّ.

فقه النصح

إذا نصحتَ فانصحْ سراً لا جهراً، وبتعريضٍ لا تصريحٍ؛ إلا لمن لا يفهم؛ فلا بدَّ من التصريحِ له، ولا تنصحْ على شرطِ القبولِ منك(١).

(١) قال الإمام الشافعي: «من وعظ أخاه سرا فقد نصحه وزانه، ومن وعظه علانية فقد فضحه
=

فعل الأرذال وفعل الأشرار

لا تنقلْ إلى صديقِكَ ما يؤلمُ نفسَه ولا ينتفعُ بمعرفتِه، ولا تكتمهُ ما يَسْتَضِرُّ بجهلِه؛ فهذا فعلُ أهلِ الشرِّ.

تجنب المصاهرة والمبايعة مع الأصدقاء

لا تُصاهِرْ إلى صديقٍ، ولا تُبايعْهُ؛ فما رأينا هذين العملينِ إلا سبباً للقطيعةِ، وإن ظنَّ أهلُ الجهلِ أنَّ فيهما تأكيداً للصلةِ فليس كذلك؛ لأنهما داعيانِ كلَّ واحدٍ إلى طلبِ حظِّ نفسِه، والمؤثِرونَ على أنفسِهم قليلٌ جداً.

= وشان»

وأنشد رحمه الله:

تعمدني بنصحك في انفرادي وجنبني النصيحة في الجماعة

فإن النصح بين الناس نوع من التوبيخ لا أرضى استماعه

وإن خالفتني وعصيت قولي فلا تجزع إذا لم تعط طاعة

حقيقة التلون المذموم

التلونُ المذمومُ هو التنقلُ من زيٍّ متكلفٍ لا معنى له إلى زيٍّ آخرَ مثلِه في التَّكلفِ وفي أنه لا معنى له، ومن حالٍ لا معنى لها إلى حالٍ لا معنى لها بلا سببٍ يوجبُ ذلك. وأما من استعملَ من الزيِّ ما أمكنَه مما به إليه حاجةٌ، وتركَ التزيُّدَ(١) مما لا يحتاجُ إليه؛ فهذا عينٌ من عيونِ العقلِ والحكمةِ كبيرٌ.(٢)

أصول الفضائل وأصول الرذائل

أصولُ الفضائلِ كلِّها أربعةٌ عنها تتركبُ كلُّ فضيلةٍ وهي: العدلُ، والفهمُ، والنجدةُ، والجودُ. وأصولُ الرذائلِ كلِّها أربعةٌ عنها تتركبُ كلُّ رذيلةٍ وهي أضدادُ الذي ذكرنا وهي: الجورُ، والجهلُ، والجبنُ، والشحُّ.

---

(١) التزيُّدَ: التكلف والمبالغة فيما لا يحتاجه الإنسان من المظهر أو الكلام لإظهار فضل ليس فيه.

(٢) قيل: إياك والتلون فإن التلون في دين الله مذموم.

الاتساء بالنبي ﷺ أصل الفضائل

الاتساء بالنبي -ﷺ- في وعظ أهل الجهل، والمعاصي، والرذائل؛ واجبٌ(١).

فمن وعظ أخاه بالجفاء؛ فقد أخطأ وتعدى طريقته، وصار مغرياً للموعوظ بالتمادي على أمره؛ لجاجاً ومغايظةً للواعظ الجافي، فيكون في وعظه مسيئاً لا محسناً.

ومن وعظ ببِشرٍ، وتبسُّمٍ، ولينٍ؛ كأنه مشيرٌ برأيٍ، ومخبرٌ عن غير الموعوظ؛ فذلك أبلغُ وأنجعُ في الموعظة.

دواء العجب

مَنِ امتُحن بالعُجب فليفكر في عيوبه، فإن أُعجب بفضائله فليفتش ما فيه من الأخلاق الدنية؛ فإن خَفيت عيوبه جملةً حتى يظن أنه لا عيب فيه، فليعلم أنها مصيبته إلى الأبد، وأنه أتم الناس

(١) من أدبه ﷺ في التوجيه والتعليم أنه كان يقول: «ما بالُ أقوامٍ يفعلون كذا وكذا..»، مع أنه قد يعلمُ أشخاصهم بأعيانهم؛ وهذا من كمال خُلُقه ورحمته.

نقصاً، وأعظمهم عيوباً، وأضعفهم تمييزاً؛ وأول ذلك أنه ضعيف العقل جاهل[١].

دواء العجب بالرأي

وإن أُعجبت بآرائك فتفكر في سقطاتك واحفظها ولا تنسها، وفي كل رأيٍ قدَّرته صواباً فخرج بخلاف تقديرك، وأصاب غيرك وأخطأت أنت؛ فإنك إن فعلت ذلك فأقل أحوالك أن توزن سقوط رأيك بصوابه، فتخرج لا لك ولا عليك.

دواء العجب بالعمل

وإن أُعجبتَ بعملك فتفكر في معاصيك، وفي تقصيرك، وفي معاشك ووجوهه؛ فوالله لتجدنَّ من ذلك ما يغلب على خيرك، ويُعَفّي على حسناتك، فيطول همّك حينئذٍ؛ وأبدلْ من العُجب

(١) عرف القرطبيُّ -كما جاء في الفتح لابن حجر- العُجْبَ بأنه: مُلاحظةُ النَّفسِ بِعينِ الكمالِ مع نسيانِ المـنعِم...

تنقصاً لنفسك.

دواء العجب بالعلم

وإن أُعجبتَ بعلمك، فاعلم أنه لا خصلة لك فيه، وأنه موهبةٌ من الله مجردة، وهبك إياها ربك تعالى؛ فلا تقابلها بما يسخطه، فلعلَّه يُنسيك ذلك بعلةٍ يمتحنك بها، تولِّد عليك نسيان ما علمتَ وحفظتَ[١].

العلم بين الاجتهاد والموهبة

واعلم أن كثيراً من أهل الحرص على العلم يجدّون في القراءة، والإكباب[٢] على الدروس، والطلب، ثم لا يرزقون منه

(١) فليعلم الطالب أن العِلم والقرآن في صدره هما هبةٌ من الله، والله قادرٌ على أن يأخذ هذه النعمة في أي وقت. يُحكى أن عالما رأى تلميذا له يُتبعُ بصره امرأةً، فقال له (ستجد غبّها ولو بعد حين) ومرَّت الأيام والسنوات، وصار الطالب حافظا للقرآن، ولكن بعد أربعين سنة، نسي القرآنَ تقريبا.

(٢) والإكباب: التفرغ.

حظاً؛ فليعلم ذو العلم أنه لو كان بالإكباب وحده لكان غيره فوقه، فصحَّ أنه موهبة من الله، فأي مكان للعجب هاهنا؟ ما هذا إلا موضع تواضع، وشكر لله تعالى، واستزادة من نعمه، واستعاذة من سلبها.

حقيقة الملك

وإن كنتَ مالِكَ الأرضِ كلِّها ولا مخالفَ عليك -وهذا بعيدٌ جداً في الإمكان- فتفكر فيما قال ابنُ السّماكِ[١] لهارون الرشيد،[٢] وقد دعا بحضرته بقدحٍ فيه ماء، فقال له ابنُ السماك: «يا أمير المؤمنين، لو مُنعتَ هذه الشَربة؛ بكم كنتَ ترضى أن

(١) هو محمد بن صبيح مولى بني عجل، كوفي، قدم بغداد زمن الرشيد، وكان يعظه، وبعد إقامته مدة ببغداد عاد إلى الكوفة، وتوفي بها سنة ١٨٣هـ.

(٢) هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور(١٤٩-١٩٣) خامس الخلفاء العباسيين وأشهرهم. وهو القائلُ مخاطبا السحاب: «أمطري حيثُ شئتِ، فسوف يأتيني خَراجُكِ.»

تباعها؟.» فقال له الرشيد»: «بملكي كله» . قال: «يا أمير المؤمنين، فلو مُنعتَ خروجها منك؛ بكم كنتَ ترضى أن تفتدي من ذلك؟ »قال: «بملكي كله» . قال: «يا أمير المؤمنين، أتغتبط بملكٍ لا يساوي بولةً ولا شَربةَ ماء؟".

ذم العجب بالمال

وإن أُعجبتَ بمالك؛ فهذه أسوأ مراتب العجب؛ فانظر في كل ساقطٍ خسيسٍ فهو أغنى منك، فلا تغتبط بحالةٍ يفوقك فيها مَن ذكرتُ.

رياضة النفوس

واعلم أن رياضة الأنفس أصعب من رياضة الأُسْدِ؛ لأن الأسد إذا سُجنت في البيوت التي تتخذ لها الملوك أُمِن من شرِّها، والنفس وإن سُجنت لم يؤمن شرُّها.

ذم الحسد

من بديع ما يقع في الحسد[١] قولُ الحاسد إذا سمع إنساناً يُغرِب في علمٍ ما: هذا شيء باردٌ، لم يتقدم إليه، ولا قاله قبله أحدٌ.! فإن سمع مَن يبيِّن ما قد قاله غيره؛ قال: «هذا باردٌ، وقد قيل قبله.

الطبع الفاسد

لا عيب على مَن مال بطبعه إلى بعض القبائح، ولو أنه أشدُّ العيوب وأعظمُ الرذائل، ما لم يظهره بقولٍ أو فعلٍ؛ بل يكاد يكون أحمدَ ممن أعانَه طبعه على الفضائل؛ ولا تكون مغالبةُ طبعِ الفاسدِ إلا عن قوة عقلٍ فاضل.

طريق الإنصاف

مَن أراد الإنصاف فليتوهم نفسه بمكان خصمه؛ فإنه يلوح له

(١) الحسد: وهو: كراهة ما أنعم الله به على العبد.

وجه تعسفه [١].

حد الحزم

حدُّ الحزم معرفةُ الصديق من العدو، وغايةُ الخُرْقِ [٢] والضعفِ جهلُ العدو من الصديق.

غاية الخير وغاية الشرِّ

غايةُ الخير أن يسلم عدوُّك من ظلمك؛ وأما تقريبه فمن شِيَمِ النَّوْكَى [٣] الذين قد قرب منهم التلف [٤].

وغايةُ الشرِّ ألّا يسلم صديقُك من ظلمك؛ وأما إبعاده فَمِن

(١) التعسف: الظلم. وقيل: الرأي بلا روية.

(٢) الحرق: الذي لا يحسن العمل والتصرف في الأمور(الحمق).

(٣) النَوْكَى: هم الحمقى.

(٤) صُن من عدوك بالحزم؛ فإنَّ تقريب العدو استجارةٌ من الرمضاء بالنار، وصنيعُ المعروف في غير أهله كصنيع مُجير أُمِّ عامر.

فِعلِ مَن لا عقل له، ومَن كُتب عليه الشقاء[1].

ليس الحلمُ تقريب الأعداء؛ ولكنه مسالمتهم مع التحفظ منهم.

ذم التفاخر

كم رأينا من فاخرٍ بما عنده من المتاع فكان ذلك سبباً لهلاكه! فإياك وهذا الباب؛ الذي هو ضرٌّ محضٌ، لا منفعة فيه أصلاً..

آفات اللسان

كم شاهدنا ممَّن أهلكهم كلامُه، ولم نرَ قط أحداً -ولا بلغنا- أنه أهلكه سُكوتُه! فلا تتكلم إلا بما يقرِّبك من خالقك.

---

(١) مَن يستكر الأصدقاءَ يستكثرُ الأعداء؛ وفعله فعل مَن لا عقلَ له. قال سليمان ابن داود عليهما السلام لابنه لا تستكثر أن يكون لك الف صديق، ولا تستقل أن يكون لك عدو واحد فالواحد كثير ونظم ابن الرومي هذا المعنى فقال:

فكثر من الإخوان ما استطعت إنهم ... بطون إذا استنجدتهم وظهور.
وليس كثير الف خل وصاحب ... وإن عدوا واحد كثير.

انتهاز الفرص

قَلَّمَا رَأَيْتُ أَمْرًا أَمْكَنَ فَضُيِّعَ، إِلَّا وَفَاتَ فَلَمْ يُمْكِنْ بَعْدُ.

غلبة الطبع

كلُّ من غلبت عليه طبيعةٌ ما، فإنه -وإن بلغ الغايةَ من الحزم والحذر- مصروعٌ إذا كُوْيِدَ من قِبَلِهَا.

المصيبة في الصديق

المصيبةُ في الصديقِ الناكثِ، أعظمُ من المصيبةِ به.

أشد الأشياء على الناس

أشدُّ الأشياءِ على الناسِ: الخوفُ، والهمُّ، والمرضُ، والفقرُ؛ وأشدُّها كلّها إيلامًا للنفسِ: الهمُّ لفقدِ المحبوبِ وتوقُّعِ المكروه، ثم المرضُ، ثم الخوفُ، ثم الفقرُ.

ودليلُ ذلك:

أنَّ الفقرَ يُستعجلُ ليُطردَ به الخوفُ؛ فيبذلُ المرءُ ماله كلَّه

ليأمنَ.

والخوفُ والفقرُ يُستعجلان ليُطردَ بهما ألمُ المرضِ؛ فيغررُ الإنسانُ في طلبِ الصحةِ، ويبذلُ ماله فيها إذا أشفقَ من الموتِ، ويودُّ عند تيقنِه به لو بذلَ مالَه كلَّه ويَسلمَ ويُفيقَ.

أشدُّ الأمراضِ كلِّها ألمًا: وجعٌ ملازمٌ في عضوٍ ما بعينه.

أما النفوسُ الكريمةُ؛ فالذلُّ عندها أشدُّ من كلِّ ما ذكرنا، وهو أسهلُ المخوفاتِ عند ذوي النفوسِ اللئيمةِ.

التثبت الذي ينبغي

ينبغي للعاقلِ ألّا يحكمَ بما يبدو له من استرحامِ الباكي المتظلمِ، وتشكّيهِ، وشدةِ تلوّيهِ، وتقلبِهِ، وبكائِهِ؛ فقد وقفتُ من بعضِ من يفعلُ هذا على يقينٍ أنّه الظالمُ المعتدي المفرطُ في الظلمِ. ورأيتُ بعضَ المظلومين ساكنَ الكلامِ، معدومَ التشكّي، مظهرًا لقلةِ المبالاةِ؛ فيسبقُ إلى نفسِ من لا يحققُ النظرَ أنه ظالمٌ.

وهذا مكانٌ ينبغي التثبتُ فيه، ومغالبةُ ميلِ النفسِ جملةً، وألا يميلَ المرءُ مع الصفةِ التي ذكرنا ولا عليها؛ ولكن يقصدُ الإنصافَ بما يوجبُه الحقُّ على السواءِ.

بين ذلّ الغفلة وعز التغافل

من عجائبِ الأخلاقِ: أنَّ الغفلةَ مذمومةٌ، وأنَّ استعمالَها (التغافل) محمودٌ؛ وإنما ذلك لأنَّ مَنْ هو مطبوعٌ على الغفلةِ يستعملُها في غيرِ موضعِها وفي موضع التحفُّظ وهو مغيبٌ عن فهمِ الحقيقةِ، فدخلت تحتَ الجهلِ فذُمَّت لذلك.

وأما المتيقظُ الطبعِ؛ فإنه لا يضعُ الغفلةَ إلا في موضعِها الذي يُذمُّ فيه البحثُ والتقصي، والتغافلُ -فهمًا للحقيقةِ، وإضرابًا عن الطيشِ، واستعمالاً للحِلمِ، وتسكيناً للمكروه-؛ فلذلك حُمدت حالةُ التغافلِ وذُمَّت الغفلةُ[١].

(١) قال الإمام أحمد بن حنبل- رحمه الله-: «تسعة أعشار حسن الخلق في التغافل»

=

حضور مجالس العلم

إذا حضرتَ مجلسَ علمٍ فلا يكن حضورُكَ إلا حضورَ مستزيدٍ علمًا وأجرًا، لا حضورَ مستغنٍ بما عندكَ طالبَ عثرةٍ تُشِيْعُها، أو غريبةٍ تُشَنِّعُها؛ فهذه أفعالُ الأرذالِ الذين لا يفلحون في العلمِ أبدًا.

فإذا حضرتَها على هذه النيةِ، فقد حصَّلتَ خيرًا على كلِّ حالٍ؛ وإن لم تحضرْها على هذه النيةِ، فجلوسُكَ في منزلِكَ أروحُ لبدنِكَ، وأكرمُ لِخُلُقِكَ، وأسلمُ لدينِكَ.

= وقال الحسن البصري -رحمه الله-: «ما زال التغافل من فعل الكرام».

وقال الحسن -رحمه الله-: أيضا «ما استقصى كريم قط» قال الله تعالى ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍۖ﴾ سورة التحريم [الآية:٣].

قال الشاعر:

ليس الغبي بسيدٍ في قومه   لكن سيد قومه المتغابي.

وقال آخر:

أحبُ من الأخوانِ كل مواتِي   وكلَ غضيضُ الطرفِ عن هفواتِ.

أحوال طالب العلم وصفة سؤال المتعلم

فإذا حضرتَها - كما ذكرنا-، فالْتزِمْ أحدَ ثلاثةِ أوجهٍ لا رابعَ لها، وهي:

- إما أن تسكتَ سكوتَ الجهالِ؛ فتحصلَ على أجرِ النيةِ في المشاهدةِ، وعلى الثناءِ عليك بقلةِ الفضولِ، وعلى كرمِ المجالسةِ، ومودةِ من تجالسُ.

- فإن لم تفعلْ ذلك، فاسألْ سؤالَ المتعلمِ؛ فتحصلَ على هذه الأربعِ المحاسنِ، وعلى خامسةٍ وهي: استزادةُ العلمِ.

- وصفةُ سؤالِ المتعلمِ هو أن تسألَ عما لا تدري، لا عما تدري؛ فإنَّ السؤالَ عما تدريه سُخْفٌ، وقِلَّةُ عقلٍ، وشغلٌ لكلامِك، وقطعٌ لزمانِك بما لا فائدةَ فيه، لا لكَ ولا لغيرِك، وربما أدى إلى اكتسابِ العداواتِ.

- والوجهُ الثالثُ: أن تراجعَ مراجعةَ العالمِ؛ وصفةُ ذلك أن تعارضَ جوابَه بما ينقضُه نقضاً بيِّناً، وإلا فأمسك.

إيَّاك وسؤال المعنت

وإيَّاكَ وسؤالَ المعنتِ، ومراجعةَ المكابرِ الذي يطلبُ الغلبةَ بغيرِ علمٍ؛ فَهُمَا خُلُقَا سوءٍ، دليلان على قلةِ الدِّينِ، وكثرةِ الفضولِ، وضعفِ العقلِ، وقوةِ السُّخْفِ. وحسبنا اللهُ، ونعمَ الوكيلُ.

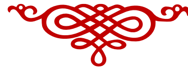
مراتب الناس بين العلم والعمل

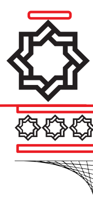
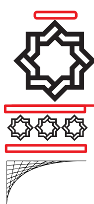
فَرْضٌ على الناسِ تعليمُ الخيرِ والعملُ به؛ فمن جمعَ الأمرينِ فقد استوفى الفضيلتينِ معًا. ومن علِمَه ولم يَعْمَلْ به، فقد أحسنَ في التعليمِ وأساءَ في تركِ العملِ به؛ فَخَلَطَ عملاً صالحًا وآخرَ سيِّئًا، وهو خيرٌ من آخرَ لم يَعْلَمْ ولم يعمَلْ به. وهذا الذي لا خيرَ فيهِ، أمثلُ حالاً وأقلُّ ذمًّا من آخرَ ينهى عن تعليمِ الخيرِ ويصدُّ عنه.

تَمَّ الفراغُ من هذا المنتَقَى من كتابِ (الأخلاق والسير)؛ والحمدُ للهِ تعالى وحده، وصلاتُه وسلامُه على أفضلِ خلقِه؛

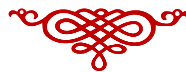
سيدنا محمدٍ، وعلى آلهِ وصحبِه والتابعينَ لهم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّين.. آمين.

ثمّ تمَّ الانتهاء من تصحيحه ومراجعته ضحى يوم الأربعاء، الأول من رمضان، سنة ألف وأربعمائة وسبعة وأربعين للهجرة، وذلك بمدينة برعو المحروسة. والحمد لله رب العالمين.



فهرس الموضوعات



ومن بين كنوز تراثنا الإسلامي، يبرز كتاب «الأخلاق والسير في مداواة النفوس» للإمام العلامة أبي محمد علي بن حزم الأندلسي -رحمه الله-؛ كواحدٍ من أعمق وأصدق ما كُتب في فقه النفوس وتقويم الأخلاق.

ولما كان عصرنا هذا قد تسارعت فيه الأحداث، وازدحمت فيه الصوارف، وغلب فيه الشتات على النفوس؛ رأيتُ أنَّ من واجب الوقت تقريب هذا الكنز للأجيال الصاعدة بأسلوبٍ يجمع بين الأصالة والتركيز، فكان هذا «المنتقى»

فَضِيلَة الشَّيخ الدِّكتُور

حسن ابن الشّيخ علي ورسمة

مكتبة القرطاس

Al-qirtas bokes 252 683 878893

AL-QIRTAS BOKES